مجلة التكامل في بحوث العلوم الاجتماعية والرياضية
pISSN 2716-9391 / eISSN 2773-3971
المجلد: (6) العدد: (1) جوان 2022
ص ص : 172 -193
DOI: https://doi.org/10.34118/ajsssr.v6i1.2167

# فلسفة الاتصال عند ميشال سير.

# Communication philosophy at Michel Serres.

**Taban Mustapha** [1].

**تبان مصطفى** *، جامعة عبد الرحمن بن خلدون- تيارت، (الجزائر)، moustaphataban@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/17؛ تاريخ القبول:2022/04/10؛ تاريخ النشر: 2022./06/30

**ملخص:**

إنَّ العقل العلمي الجديد– الجديد عند **ميشال سير*** قائم على فكرة التَّواصل، أي النَّقل والاستيراد بين مختلف الجهويات المعرفية علوم دقيقة وإنسانية، أدب، فنون وأساطير–، للمواضيع والمناهج والمفاهيم، وأيضا اهتمامِه بفيزياء وعالم الاتصال.

استلهم فلسفته هذه من الإله هرمس، كونه راعي الاتصال، والفيلسوف ليبنتز بصفته أوَّل من استخدم عبارة الاتصال الفلسفي، ولِما له من أثر في عالم الاتصال والإعلام، بالإضافة إلى ذلك اعتباره أول من نادى بضرورة إنشاء لغة عالمية مشتركة يتَّفق حولها الجميع، عن طريق محاولته وضع رمزٍ لكل فكرة بغية التَّعبير عنها، والتي في رأيه لن تكون إلاَّ لغةً رياضية، كونها الوحيدة الخالصة من أيّ ضجيج.

**الكلمات المفتاحية:** الاتصال، وحدة المعرفة، الأسطورة، العارف الثالث، الجهويات العلمية.

## Abstract:

The new scientific spirit at Michel Serres is based on the idea of interaction, that is to say an alternation between the import and export of different scientific regions -sciences: exact, human and literary, the art and mythology - for the subject, doctrines and ideals. Also interested in physics and the world of communication.

This philosophy is organized from a Hermitian and Leibnizian doctrine, thanks to their impact in the field of communication on the one hand, and thanks to a platform created by Leibniz which consists in building a world language emptied of all pathologies. parasitic on the other hand.

**Keywords:** Communication; Knowledge unit; the legend; the third knower; scientific regions.

* المؤلف المرسل: تبان مصطفى، moustaphataban@gmail.com

### 1. مقدمة :

إن النُّقطة المركزية في فلسفة **ميشال سير** هي فكرة اتِّصالية المعرفة العلمية، التي يتم بموجبها تجاوز واختراق كل تصنيف، ذلك لأنَّ الشَّيء الأهم في نظره ليس الفصل بين العلوم، بل رسم نقطة التقاء وتقاطع بين هذه الحقول العلمية تحت سماء معرفية واحدة، ولا تتحقَّق هذه المبادرة إلّا بدعوة نحو فلسفة للاتِّصال، كون أنَّ العقل البشري قد تجاوز فكرة الإنتاج التي كانت تمثل الغاية القصوى له إلى فكرة التّواصل، لما لها من أثر على الواقع البشري في الفترة المعاصرة، وقد استلهمها من الفيلسوف **ليبنتز** على اعتبار أنّ رسالته في الدكتوراه كانت حول فلسفته (فلسفة ليبنتز)، كما أنَّه قد بنا فلسفته على **الإله هرمس** كونه راعي الاتِّصال، منجزا سلسلة مكوَّنة من خمس أجزاء تصبُّ كلها حول فلسفة الاتصال **(الاتصال، التداخل، الترجمة، التوزيع والممر الشمال الغربي)**. وعلى ضوء ذلك نتساءل: أين يتجلّى مفهوم الاتّصال في فلسفة **ميشال سير**؟

### 2. ميشال سير على خطى الاله هرمس في عالم الاتّصال:

هرمس -في نظر **ميشال سير**- اله الرُّسل عند الأسطورة اليونانيّة عوَّض **برومثيوس** اله الإنتاج، ولد في الوقت نفسه مع نظرية الإعلام وهو مهندس متخصِّص في شبكة الاتصال، بهذا أصبح سيِّد الجميع. (Serres, Michel. (2014). Pantopie. pp.115-116) يقول في ذلك:" عندما انطلق تفكيري في الستّينات، رأيت أن حضارتنا تتَّجه نحو الاتصال كوجهٍ مميزٍ لها، هذا بينما كان جوهر حضارة القرن التَّاسع عشر الإنتاج، وإلهها بلا منازع **برومثيوس** سارق النار ومهديه للإنسان. و**هرمس** هذا هو اله التِّجارة والرَّحلات والتَّرجمة والتَّبادل والتَّراسل. ولا أستطيع القول أن رهاني هذا قد أخطأ، فالاتصال أصبح بأوجهه كافة وآخرها الأنترنت، السِّمة المميّزة لمفترق القرنين وذلك بإقرار الجميع". (ساسين، فارس. 2014).

ويضيف قائلا:" منذ عام 1960م، كنّا نشعر أنّ **برومثيوس** قد أصيب برصاصة في الجناح، وأنّ **هرمس** اله الاتّصالات كان سيأخذ وضعه في العصر الجديد. كثير من زملائي لم يودُّوا رؤية ذلك، وأسقطوني من أعلى، عندما شرعت في إصدار سلسلة هرمس ابتداءً من 1968م بعد عشرين أو ثلاثين عاما، بات واضحا الآن أنّ المجتمع قد تمحور في ذلك الجانب".(بيسون، جوليان. أكتوبر 2015. مجلة الدوحة. العدد 96).

كما يُقر أنَّ **هرمس** هذا لديه عائلة إذ هو ابن الأطلس واله الشَّبكة، أب الأصبع الصغيرة (petite poucette)، طفل الإعلام، ولد في السَّنوات ما بين 1950-1960م في فترة تطوُّر تقنيات الهاتف، كما لديه أخ ألا وهو الضَّجيج. (Serres, Michel. 2014. Pantopie. op.cit. p.120)

أيضا يرى أنَّه ملاك (Ange)، لأنَّ الرسول يُصطلح على تسميته في اليونانية بالملاك، ولهذا ألَّف كتابا كاملا حول الملائكة، أسماه **بأسطورة الملائكة.**

يعتقد **سير** أنّ علم الملائكة (Angéologie) الذي كان سائدا في العصور الوسطى آنذاك، يسمح بفهم حقيقة عالم الاتِّصال، "لأنَّه يشكّل الخلفيّة الفكريّة والعمليّة لدراسة الاتِّصال والإلمام به ". (ساسين، فارس. 2014. مرجع سابق).

وفي هذا الجانب نجده يولي أهمية كبيرة لمسألة جنس الملائكة، بحيث يرى أنَّ البعض يعتقد أنَّها مسألة ساذجة، إلاَّ أنَّه يراها عكس ذلك تماما لها بالغ الأهمية، يقول في ذلك:" لأنهَّ إذا كان **لمارتين** (Martin) جنس وائتمنته على رسالة ليوصلها إلى محبوبتي، فانَّ في ذلك خطر على أن يسقط في حبّها". .(Serres, Michel. 2014. Pantopie. Op.cit. p. 118)

لهذا فهو يركّز ويراهن كثيرا على ضرورة عدم وجود جنسٍ للملائكة، وذلك قصد وجود قناة ناقلة للرّسالة، خالصة من أي فوضى أو شوائب، ويستدل بذلك من الحوادث التَّاريخية، بحيث أنَّ "غالبية المآسي التَّاريخية ارتبطت بمسائل سِيء فهمها، مشوَّشة، مُلفَّقة أو لم توزَّع إطلاقا، ولهذا فانَّ مسألة جنس الملائكة مهمة جدا في عالم الاتِّصال ...جريان الرَّسائل يستلزم احترام القوانين الخاصة والتي هي قوانين علم الملائكة". (Serres, Michel. 2014. Pantopie. Op.cit. pp. 118-119).

وبما أنَّ هرمس هو ملاك من مجموع ملائكة يقودنا هذا إلى التَّساؤل حول مدى امتلاكه لجنس، لأنَّ في ذلك تأثير على الرَّسائل التي يحملها، ليقطع بعد ذلك الشَّك باليقين بقوله:" الملائكة ليس لها جنس، إلغاء الجنس هي عملية تقنية وفلسفية أساسية، مضحكة لكنَّها مهمَّة. في الأخير كل النُّظم تقول **بمعالجة الإشارة**، فهي تعالج في الحقيقة جنس الملائكة". (Serres, Michel. 2014. Pantopie. Op.cit. p.119)

## 3. ليبنتز و أثره في فلسفة الاتِّصال:

يعتقد **ميشال سير** أنَّ الفيلسوف **ليبنتز** يُعتبر أوَّل من استخدم عبارة الاتِّصال الفلسفي، كما كان له الأثر الكبير في عالم الاتصال، إذ وهو يشتغل حول مذكرته، دُعي من قبل صديق له يعمل في مؤسسة اتِّصالات فرنسا وذلك لزيارة المخابر الموجودة هنالك، وفي أثناء خروجه قال أنَّه طلب منه زميله:" ماذا تظن في ذلك؟ آه نحن في صميم القرن 17م !" كان جد منبهرا ! بالرغم من أنَّه كان كل شيء دقيق: عالم الاتِّصالات هو عالم ليبنتزي. ( Ibid (p.130

يقول:" قد أصبحنا جميعا منذ حوالي العشرين سنة ليبنتزيين جدا. وقد تصاعدت هذه الموجة طوال القرن التَّاسع عشر، وحيثما كُنَّا نلاقي المركَّب (Combinateur) في المنطق، الجبر والكيمياء، عند مُنظِّر التَّواصل، في تكنولوجيا إرسال الإشارات وفي الرياضيات. وعند المعادي لنيوتن في الميكانيكا النِّسبية، وعند فيلسوف القوة والقدرة وفي الديناميكا الجديدة. إنَّني لا أتكلم هنا إلاَّ عن حالات مؤسِّسي الحداثة الذين عيَّنوا ليبنتز كرائد". (Serres, Michel. 1977. la distribution. p. 275)

بمعنى أنّ فلسفة ليبنتز قد أبانت فيما بعد عن نجاعتها، تجلَّى ذلك في مجالات علمية عديدة، إذ أنَّ النَّزعة الليبنتزية الجديدة ركَّزت على الاختلافات شأنها في ذلك شأن الليبنتزية القديمة بحيث أصبحت لغة واحدة مشتركة في التَّداول، لم يرتبط الأمر فقط بالعلوم المسمَّاة بالدَّقيقة وإنَّما تجاوز ذلك إلى غاية العلوم الإنسانية، وذلك من خلال سعي دارسيها نحو وضع نماذج ثابتة ذات طابع صوري، "حيث أنَّ التَّحليل البنيوي يتفحَّص

نموذجا واحدا معيَّنا أو اثنين قد جرى اختزالهما إلى صورة/شكل معيَّن (أو عدة أشكال)، بترتيب متعدٍ (transitive) قد جرى تثبيته مسبقا. ثم على نحو متشابه تجد هذا الشَّكل أو البنية في ميادين أخرى ". (ليشته، جون. 2008. ص 182).

فإذا كانت لغة الجبر هي المسيطرة على العلوم الحقَّة سواء علوم المادة الجامدة أو الحية، فإنَّ العلوم الإنسانية سيطرت عليها اللُّغة الخطابية، بحيث أنَّه " قد عاودت نزعة المقارنة التي أُهملت في وقت من الأوقات الظهور من جديد في مجال العلوم الإنسانية مع أعمال **دوميزيل** (Dumezil) الذي انكبَّ على دراسة التماثل وإعادة بناء الثوابت من دون عرض لغتها ". (تيبس، يوسف. فلسفة العلم في القرن الحادي والعشرين).

ومن المبادئ الأساسية التي تُكوِّن جوهر فلسفة التماثل: مبدأ كل شيء يماثل أو يشبه أو يتّصل أو ينسجم مع كل شيء بجهة من الجهات، أو هو اتحاد الشَّيئين في النوَّع أي في تمام الماهية. كما أنَّ هذه الفترة قد طفا عليها الاتجاه الاسمي (Nominalisme)، وهو مذهب ينتمي أصحابه إلى فلسفة العصور الوسطى، وهي حركة منطقية وابيستمولوجية امتدَّ تأثيرها إلى ميدان العلم الحديث والمعاصر، تؤكِّد على أنَّ الأفكار العامة لا تقابل أية حقيقة وإنما تنحل إلى إشارات عامة تُعرب عنها، ولا شيء يمكن أن يوجد أو يتصور خارج اللغة، وبهذا فلا وجود لشيء إلّا في إطار رمز أو إشارة تحمل معناه. يقول في ذلك **ميشال سير**: "خلال الحرب العالمية شارفت هذه الموجة عتبة الأنساق الحيَّة، حيث كان علماء الوراثة يشكِّلون أداة أو أورغانونا لأبجدية ولشفرة (Codage) ولتنظيمات ولترجمات. لقد شكَّل هذا عند إعادة تناوله، فنًا تركيبيا ونسقًا لاتِّصال الماهيات المنقولة أو المتناولة من جديد. والحال أنَّ ما بدأنا في الوقت نفسه نسمِّيه بالعلوم الإنسانية أخذ بصفة عامة السلوك نفسه. وقد كوّن بصفة عامة كما نقول الآن براديجما (paradigme). وفجأة أصبح الباحثون على اختلافهم يتفاهمون فيما بينهم ". (Serres, Michel. 1977. la distribution. Op.cit. p. 275)

وبهذا العمل حلَّ ليبنتز محلَّ أوجست كونت وزالت الوضعية التي سيطرت لفترة طويلة من الزمن، وحصلنا على نتائج في مجالات اكتفى فيها أسلافنا بتسجيل انطباعات، وأفرغت النَّزعة الإنسانية الذَّاتية من شحنتها العاطفية (son pathétique)، وذلك كون أنَّ ذات الملاحظ تراجعت بشكل ملحوظ خلف المركَّب، كما تراجع الكوجيتو الديكارتي أو المتعالي خلف النَّزعة الذرية الاشاراتية، بل أكثر من ليبنتز ربما عاد أبيقور ولوكريس ليسكنا المكان مرة أخرى. (Ibid. p.276)

يُجلِّي **ميشال سير** الفيلسوف **ليبنتز** كثيرا، كونه أوَّل من صاغ الآليات التي تسمح بالتَّفكير الحقيقي في عالم الاتصال والإعلام، "لأنَّه يزعم أنَّ العالم يتكوَّن من ذرَّات أوَّلية روحية لا فرق في ذلك بين أرواح وأجسام، وهي تختلف عن العنصر الذي فرضه سبينوزا جوهرا للكون، بأنّها ذرات فردية لانهائية من حيث عددها وكيفها ". (نجيب محمود، زكي. 1936.ص 183).

وما يميّز هذه الذَّرات في نظره أنَّها لا تشبه بعضها البعض، بل هي مختلفة ومتباينة، إذ الواحدة منها لا تشبه الأخرى. وللذرَّة الروحية خاصيتان: فهي شاملة للكون ومنعزلة عنه في الآن نفسه، بمعنى أنَّها مستقلة عن بعضها البعض ومفارقة له، لكنها في الجهة المقابلة تدخل في تكوينه." فكل ذرة ينعكس فيها الكون كله، بحيث لو استطعنا أن نصل إلى فهم واحدة منها فقد فهمنا الكون بأسره، فكل ذرة منها تحمل في طيّها ماضي العالم ومستقبله". (المرجع نفسه، ص184).

وبالرَّغم من استقلالها عن بعضها البعض إلا أنَّها متصلة فيما بينها ومتداخلة، وأكبر دليل على ذلك هو هذا الكون المنسجم والمنظَّم، الذي أحسنت الذَات الإلهية تنظيمه، وذلك بطبيعة الحال من خلال ربطها بين الموناد‌ات. يقول **ميشال سير**:" الحل الذي اقترحه ليبنتز عظيم وثمين، بحيث أنَّ المشكل قد شق طريقه نحو الحل". (Serres, Michel. 2014. Pantopie Op.cit. p.128)

هذا الحل يتمثَّل في أنَّه بما أن الموناد‌ة لا تستطيع التَّواصل مع بعضها البعض، فانَّه يتوجب عليها المرور بطرف ثالث (un tiers) الذي بدوره يضمن تحويل الرَّسائل تحويلا

شفافا. وهذا الطَّرف الثَّالث الذي يقترحه ليبنتز هو الله، لأنَّه في نظره هو الموناده العظمى اللامتناهية التي تضمن تفاعل الموناد ات مع بعضها البعض. لكنَّه بهذا لا يفكِّر تفكير المتعصِّبين بل تفكير الرِّياضي، إذ أنَّه بوجود الطَّرف الثَّالث تكون العملية جد اقتصادية وذلك بترديده لنفس الرِّسالة على الجميع، لكونه هو الوسيط تربطه علاقة فردية مع كل واحد من المجموعة. وحقيقة الموناد ة أنَّها "لفظ يوناني الأصل معناه الوحدة، وقد أخذه عن **جوردانو برونو** أو أحد الكيميائيين من معاصريه... إنَّ الموناد ا عنده قوة متجهة إلى الفعل بذاتها، حاصلة على التلقائية، فلا تفعل بتحريك محرك مغاير كما هو الحال في المادة في رأي أرسطو والمدرسيين وديمقريطس وديكارت، فإنَّ التأثير الخارجي اصطدام جزء بجزء وليس للموناد ا أجزاء ". (كرم، يوسف. 1986. ص 130).

في حالة غياب الطَّرف الثالث، تزداد عدد المسارات بازدياد عدد الأفراد، بحيث أنَّه بين شخصين ليس هنالك إلاَّ مسار واحد ممكن، وبين أربع هنالك ستة مسارات ممكنة...الخ.

نوضح ذلك بالمعادلة التالية: pour **n** personnes il y a **n(n-1)/2** chemins.

وبهذا فإنّ اتّصال مباشر بين عدد لانهائي من الموناد ات يقود بالضَّرورة إلى عدد لانهائي من العلاقات الممكنة، لكن إذا ما ارتبطت كل موناد ة بالله الذي يُحوِّل بدوره إلى كل موناد ة نفس المعلومة فإنّ عدد العلاقات بينها سينخفض ويتناقص، "لأنَّه يعتقد أن الله جلَّ شأنه هو الذرة السامية الكاملة، وهي أساس الذرات جميعا، منها تنبثق، كما ترسل الشمس ضوءها، فإذا ما أرادت ذرة أن تتَّصل بأخرى، كان لزاما عليها أن تتَّصل أوَّلا بذلك الأساس، لأنّه بمثابة المركز الذي تتفرع منه الطُّرق جميعا". (نجيب محمود، زكي. 1936. مرجع سابق. ص 189).

أمَّا في حالة غياب الطرف الثالث فإنَّه يعوض في نظر **ليبنتز** بشبكة (un réseau)، يقول في ذلك **سير**:" في الواقع ليبنتز وضع البديل النِّهائي: إمّا الاتِّصالات تشتغل بفضل قطب كالله الذي يصل كل النِّقاط، إمّا يجب إبداع شبكة والتي تضمن وظيفة الله في حال غيابه. هي

معجزة التكنولوجيا الحديثة تتجلّى في نماذج عديدة مع الهاتف، الحواسيب ثم الانترنت. فالأنترنت هي نظرية الذرات الروحية بدون الله. فكل مستخدمي الأنترنت هم مونادات على قدم المساواة، مستقلّين و متّصلين في الآن نفسه" Pantopie. (Serres, Michel. 2014. Op.Cit. p130)

ما هو ملاحظ ممَّا تقدم أنَّ هذه الفلسفات التي تولي أهمية كبيرة لفكرة الاتّصال، كان لها الأثر البالغ في بلورة فلسفة الاتصال عند **ميشال سير**، بحيث أنّها أصبحت فلسفة تمقت فكرة الحدود بين مجالات المعرفة المختلفة، والتي كانت من وضع الظروف الايديولوجية والسِّياسية، هذا من جهة أما من جهة أخرى فقد ألغت فكرة النقطة الثابتة كما هو الحال عند العديد من العلماء والفلاسفة **كروني ديكارت**. وذلك كون العقل العلمي الجديد- الجديد **لميشال سير** يؤكِّد على التفاعل بين النظريات والمواضيع والذوات، أي أنَّه لا يركز على الذات العالمة بل على مجموعة من الذَّوات **(الجماعة)**، بالإضافة إلى قوله بفكرة المتعدّد وليس الواحد.

إنَّ الشيء الذي يميّز الفلسفة السيرية عن الفلسفة الديكارتية والباشلارية هو نظرية الإعلام، أي فعل النَّقل والاستيراد بين الجهويات العلمية المختلفة، وليس فعل النَّفي كما هو الحال مع فلسفة **غاستون باشلار**. كما أنَّه يختار الجسم الصلب كموضوع لفلسفته، لأنَّ "ما يوجد هو اتّصالات أو تواصلات تنقل الإعلام من موضوع إلى آخر، وتنقشه على الأجسام الصلبة، فتحتفظ به هذه الأخيرة ". (تيبس، يوسف. 2002. "تاريخ وفلسفة العلم عند ميشيل سير". المجلد30، العدد 4. ص189).

وهذا على نقيض **غاستون باشلار** الذي ركَّز على السَّوائل وظواهر الانتشار و**روني ديكارت** الذي ركَّز على الهندسة.

إنَّ تركيزه على الجسم الصلب يعود لشيء واحد فقط، كونه يمثل نموذجا للاتصال والإعلام، بمعنى أنَّه يتوفَّر على خصائص معينة كالنّقل والتّصدير والاستيراد، بخلاف الأجسام الأخرى كالسَّوائل مثلا التي تفتقد نوعا ما لهذه الخاصية، " بمعنى أنَّ المواد

السّائلة تفقد المعلومات التي تطبع عليها في مسار التجارب المتنوّعة عليها، إنَّ السَّوائل هي مواضيع للانتشار فقط، في حين أنَّ الأجسام الصلبة هي مواضيع للانتشار والمحافظة والاحتفاظ في الوقت نفسه. إنَّها تتوفَّر على ذاكرة كخزَّان للمعلومات" (تيبس، يوسف. 2002. "تاريخ وفلسفة العلم عند ميشيل، مردع سابق، ص 186).

ولتوضيح ذلك لا باس أن نعرض تجربة قطعة الشَّمع التي أجراها **روني ديكارت**، والتي استدلَّ بها **ميشال سير**، وتتلخَّص هذه التَّجربة في تقريب هذه القطعة من النَّار، بحيث أنَّ هذه التَّجربة في نظره (سير) هي بالفعل تاريخا، وذلك كون أنَّ قطعة الشَّمع تتعرَّض لتغييرات أو تمر بتغييرات، وفق الإعلام الذي تتلقَّاه (النار)، بمعنى أن الإعلام الذي تتعرَّض له يظهر جليا عليها ويستغرق مدَّة من الزَّمن، على عكس السَّوائل التي تتعرَّض للإعلام لكنها تفتقده بسرعة. ولهذا فإنَّ نظرية الإعلام هي ما يميِّز فلسفة **ميشال سير**.

كما نجد فلسفته تركِّز على علاقة موضوع- موضوع، أي الإعلام أو الاتصال المتبادل بين الموضوع والموضوع، وذلك لأنه عدا هذه العلاقة فإنّ باقي العلاقات سواء ذات- موضوع أو موضوع- ذات، فالموضوع مقصى وكأنَّها ذات- ذات. وهذه العلاقة (موضوع- موضوع) "تشمل كل موجودات العالم، سواء الجماد منها أو الحيوان أو النَّبات. والعضوية في نظره تتوفَّر على شبكة من النَّقل والتَّواصل انطلاقا مما توصَّل إليه تحليل الأجسام الكبيرة، وتحليل الكيمياء الحيوية للعناصر الدقيقة في الخلايا كـ: A.D.N و كـ: A.R.N والبروتينات. يقول: "يوجد في الجهاز العضوي شيء ما كالحروف، شيء ما كالقاموس، شيء ما كشبكة النَّقل ".( المرجع نفسه. ص 190).

إنَّ الحديث عن الشَّبكة (Réseau) يقودنا إلى فكرة الاتِّصال كنظرية فيزيائية نالت القسط الوفير من اهتمام فيلسوفنا **ميشال سير**، يقول: "حيث أنّني حاولت تكوين فكرة الشَّبكة مع ليبنتز، بدأت أتمعَّن حول ما يجري في الشَّبكة. وهي الفترة التي كنت مهتمًا فيها كثيرا بأعمال فيزياء المعلومات عند كل من **شانون** Shannon و**بريوين** Brillouin، حيث كنت من بين الأوائل المتحدِّثين في فرنسا عن ماذا يجري في قناة الاتصال؟ ضجيج". (Serres, Michel. 2014. Pantopie. op.cit, pp. 136-137)

فهو يرى أنَّ الضَّجيج من بين المكونات الأساسية في نظام الاتصال، أو بشكل آخر جزء أساسي منه، بحيث لا يمكن تصوُّر أي نظام أو اتّصال يجري بشكل تام في غيابه، إذ أن أيَّ اتصال يقوم على الأسس التالية: الرسالة، القناة والتَّشويش (Noise). يعرّفه فيقول:" هو فوضى القاع، اللانظام. الضجيج هو اللامعنى، أكثر دقة بدون شك هو غياب الإشارة (signal)"(Serres. Michel. 1998. La naissance de la physique. P.178).

يرى **ميشال سير** أنَّ القانون يُنظِّم حياتنا الواقعية كجماعة أو عائلة، يؤدي إلى الانسجام والاتِّفاق بين الجميع، مثلما هو الحال مع الرياضيات، والتي قد أُبدعت مع اليونانيين ثم بعد ذلك لقيت التفاف واتِّفاق الجميع حولها، على سبيل المثال أن الدَّائرة لها مركز واحد، أما الاهليليج فله مركزان. يصفها فيقول عنها:" الرياضيات تُطلِق لغة مماثلة مرنة، خالصة وشفَّافة لعلم مماثل مرن، تزرع الفردانيات على شاكلتها. نحن نفهم إذا الانسجام بينها وبين العالم، الذي يسمح بفهمنا للعالم، انسجام الذي اشتهر فيه كانط وأينشتين بطريقة سحرية ". (Serres Michel, Serres. octobre 2015. Ecrivains, savants et philosophes font le tour du monde. P. 76).

لكنَّه يؤكد في الجهة المقابلة على وجود الضَّجيج في واقعنا كحقيقة تفرض نفسها علينا، يقول:" إننا محاطون بالضجيج، هذا الضجيج لا ينطفئ، إنّه خارجي – هو العالم نفسه- وهو داخلي. أُنتج بواسطة حياتنا البدنية، نحن داخل ضجيج العالم لا نستطيع إغلاق بابنا في سبيل استقباله ".(Serres, Michel. 1982. The parasite.p126)

فله كيان مستقل بذاته يفرض نفسه علينا، مما يستلزم ضرورة مجابهته، يقول:" أعظم وأجمل شيء بأنَّ عصرنا يُعلِّمنا التَّقريب بين الوضوح وبساطة أعقد الأشياء سابقا، التي آمنت كونها نتيجة حظ، ضجيج وفوضى بالمعنى القديم للكلمة. هرمس الرسول الأول يجلب النُّور للنُّصوص والعلامات، أصبحتا فيما بعد مُحكَّمَتين. الرِّسالة تأتي عبر قتالها ضد خلفية الفوضى والضَّجيج، كذلك هرمس يتجاوز الضَّجيج نحو المعنى". (Serres Michel with Bruno Latour, 1990. Conversation on science, culture, and time, pp. 65-66).

كما أنَّه يعتقد بعدم وجود معرفة حقيقية عن تركيب أو جمع أو اندماج المونادات أو انفرادها، كيفما كان هذا المجتمع، يقول:" لا نعرف أيَّ شيء عن أبسط أو أقصى العمليات المباشرة – إضافة، تعدد، تركيب، دمج- التي تكون معنا، وأسفاه نستطيع فقط الخصم، التحليل والقتل ". (Serres, Michel. 1982. The parasite. Op.cit., p. 123)

ولتوضيح كيفية التَّواصل بين المونادات يضرب **ميشال سير** مثالا عن فرقة موسيقية تسعى نحو الانسجام ضد قوى الضَّجيج، إذ أنَّه يصطلح على تسمية أي تجمُّع **بالصندوق الأسود**، لأنَّه يحوي الفوضى، حتى ولو أنَّه مثلا في الأوركسترا أي الفرقة الموسيقية يلعب كل عضو فيها لحنه أو يبعث معنى، يقول:" الجماعة مع بعض تُنتج خطئا، خطرا وضجة غريبة، فالمجموعة هي ضوضاء بيضاء نفسها " .(Ibidem).

بمعنى أنَّ العالم الذي نعيشه يحكمه الاضطراب والفوضى وليس النِّظام، هذا ما أكَّدته أعمال الكثير من العلماء في الفيزياء المعاصرة والنَّظرية الفوضوية، مع كل من عالم الرياضيات الانجليزي **الان تورينج وادوارد لورينتز**، وعالم الكيمياء الروسي **بوريس بيلوسوف**، وقد سار **ميشال سير** في هذا المنوال، إذ يقول:" احتمالية الانسجام ضعيفة في تضاعف التَّوزيع بين المرسِل والضُّعف النوعي في الاستقبال. الاتساق ليس قانونا ليس انتظاما، الاتساق هو ندرة نفسها، هو بالتحديد تماما معجزة. أنادي معجزة، الاحتمال الجد عظيم. حين تحدث المعجزة من اتفاق غير محتمل، فينتج أغنية جديدة". Ibid, (p.122)

إذ ليس هنالك اتِّفاقا بين المرسِل والمتلقي، وهذا راجع إلى العنصر الثَّالث الذي أشرنا إليه سابقا، والذي لا يمكن التَّخلص منه في عالم الاتصال وهو الضَّجيج، بحيث أنه يلعب دورا سلبيا في عرقلة الانسجام ويعمل على زرع التفرقة تماما مثل الغضب الذي يُشتِّت الناس. يقول:" المونادة ليس لها باب ولا نافذة، نحن صمٌ وبكمٌ، لأنَّه في غالب الوقت عندما تصل إلى حواسنا دائما ما تكون مغلقة، فالمونادة لا تُطاق "..(Ibid, p 126)

## 4. من منطق التَّنافر إلى منطق الاتصال بين العلوم الإنسانية والدَّقيقة:

يعتقد **ميشال سير** اعتقادا راسخا أن بقاء العلم وحيويته بالذَّات، يعتمدان على درجة انفتاحه على الآخر الشعري بالنسبة إليه، فالعلم يستمر في المسير فقط إذا تلقَّى

إمدادا وتغذية في الوريد، من مصدر ما، من شيء معجز ولا يمكن التنبؤ به. (ليشته، جون. 2008. مرجع سابق. ص 185).

فالشِّعر بالنِّسبة إليه أو العلوم الإنسانية بصفة عامة ليست عائقا أمام العلم الطَّبيعي، بل بالعكس من ذلك تماما دعامة له، ويتجلى ذلك -وكما أسلفنا الذكر- من خلال اتخاذه **هرمس** كوسيط بين مختلف المعارف من إنسانية وطبيعية، بغية إلغاء الحواجز المرسومة بينها، وبالتَّالي التَّقريب بينها.

بالرَّغم من وجود الكثير من الأصوات المنادية بالفصل بين العلوم المسمَّاة بالطَّبيعية والعلوم الإنسانية، كون أنَّ الأولى دقيقة قابلة للدِّراسة العلمية في المخابر، من خلال اصطناع الظَّواهر وبالتالي إمكانية التَّنبؤ بها، في حين أنَّ الثانية بعيدة عن الدراسة العلمية، موضوعها ميتافيزيقي وصفي غير قابل للتَّكميم. لكن **سير** وكما سبق يعارض هذا التَّميز معارضة مطلقة ويدعو إلى ضرورة التَّقريب بينها، يقول:" تعَبٌ من هذه الألعاب الخادعة، من هذا الغش. أحلم بأنَّ حياتنا القصيرة تهرب من هذا الوقت المُمل، من الدِّماء والموت. نأمل في العودة إلى لحظة ثقة بحيث لا غش ولا خداع، لأجل نظرية معرفة تجمع العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية، معرفة جديدة، ابيستمولوجيا جديدة، إنسان جديد وتربية جديدة ". (Michel, Serres. 1985. les cinq sens. P. 370)

ويقصد بالإنسان الجديد **العارف الثالث** (Le tiers instruit)، الذي يجمع بين كل المعارف (العلوم الإنسانية والعلوم الدَّقيقة)، وذلك كون أن الأولى لا تَقلُّ أهمية عن الثانية، فإذا كانت هذه الأخيرة تخدم الإنسان من الناحية المادية، فإنّ الأولى تهتم بدراسته من النَّاحية المعنوية، من ناحية أنَّه كائن محمَّل بالماضي وهذا مجاله علم التاريخ، ومن ناحية كونه كائن له ميول ورغبات وهذا ميدانه علم النفس، ومن جهة كونه كائن تجمعه علاقات مع بني جنسه تمتاز بالتَّجاذب والتَّنافر، وهذه الدراسة تعود إلى ميدان علم الاجتماع.

إنَّ سر تطور العلوم الإنسانية هو حذوها حذو العلوم التجريبية، فإذا كانت العلوم الإنسانية تأخَّرت كثيرا عن ركب العلوم التجريبية في الاستقلال عن الفلسفة، فإنّ الوضع في القرن 19م قد تغيَّر كثيرا نتيجة تطور العلوم التجريبية في مناهجها، هذا الوضع

استغلَّته العلوم الإنسانية محاولة معالجة مشاكلها مستعيرة من العلوم التجريبية تلك المناهج. كما أنَّ الفضل في هذا التَّقارب يعود إلى الدَّور الذي لعبته الجامعات في دراسة العلوم المرتبطة بالإنسان، خاصة بعد تلك الآثار السلبية التي نجمت عن التطور التكنولوجي، ممَّا أدَّى بظهور أزمات أخلاقية تولَّدت عنها كذلك أزمات اجتماعية ونفسية، وهذا ما نجده في الدِّراسة الاجتماعية التي أجراها **بيير بورديو**، يقول:" إليك الفضاء الذي بدأ فيه اليونانيين يرسمون حدودا بواسطة التَّعريف والإقصاء،- الذي لا يدخل فيه إلاَّ من كان هندسيا- بحيث أنَّ القرن 17م الأوربي عاود المعرفة وأيضا سعى نحو تعريف فضاء العلم ".(Michel, Serres. 1985. les cinq sens. P. 370).

بمعنى أنَّ فكرة وضع حدود للعلم أو الفصل بين المعرفة العلمية وغير العلمية قديمة جدا، تمتد منذ اليونانيين وتسهر على ضبط حدود العلم، وإلغاء كل ما هو غير علمي، ولعلَّ أنَّ الأمر ازداد تعصُّبا خاصة بسيطرة الفكر الوضعي على الواقع الإنساني، حتى أصبحت المعرفة التي ليست معرفة علمية ليست بمعرفة بل جهل.

رفض **سير** في البداية التَّطرق لمسألة التوفيق بين العلوم الإنسانية والدَّقيقة، كون أنَّ هنالك اختلافات وتمايزات بينها، يقول:" العلوم الإنسانية تراقب، العلوم الدقيقة تلاحظ، الأولى لها عمر الأساطير، الثانية جديدة وُلدت معنا هي التَّاريخ. الأسطورة والمسرح، التمثيل والسياسة لا تُعلِّم الملاحظة وإنَّما تلتزم بالمراقبة ".(Ibid, P38)

فالعلوم الإنسانية وجودها قديم جدا مقارنة بالعلوم الدَّقيقة، بحيث أنَّه قد كانت الأسطورة القراءة الأولى للتَّاريخ الإنساني وذلك في بداية تفكيره، كما أنَّها كانت وسيلة معرفة أولى لديه، وكانت توصف بأمِّ العلوم أو العلم البدائي، بدليل أن التَّاريخ في الكثير من المرات ما تكون الأساطير أحد موارده، كما أنَّها وسيلة لتفسير وفهم مظاهر الكون. ويضيف قائلا للتمييز بينهما:" العلوم الدقيقة تُكوِّن نظريات متقنة، لكن وفية، دقيقة وثابتة. القط يبقى عندها قط (مبدأ الهوية)، العلوم الإنسانية والاجتماعية تصف نظريات أكثر زيف من الزيف. جدُّ غشَّاشة من الغش، وذلك لأجل إحباط أشيائهم، وكل شيء يصبح ممكن، البقرة تصبح امرأة أو الله ثور، حتى مبدأ الهوية يختلف أو يتغيَّر ". Michel, Serres. (1985. les cinq sens. Op.cit. p. 41).

فما يميّز العلوم الدقيقة أنَّها تستعين بالنهج الاستقرائي والمنطق الصوري معا، بمعنى أن التَّجريب يكون وفق مبادئ العقل والتي من بينها نجد مثلا مبدأ الهوية، عدم التناقض ومبدأ السببية، في حين العلوم الإنسانية بعيدة عن الحقيقة واليقين، بدليل أنَّها لا تلتزم بمبادئ العقل. كما أنَّه جعل من الشيطان راعٍ للعلوم الإنسانية في حين الله راعٍ للعلوم الدقيقة، وهذا كناية عن المكر والخداع الذي تتَّصف بها العلوم الإنسانية واليقين والصرامة الذي تتمتع بها العلوم الدقيقة، بحيث أن الشيطان هو رمز للمكر والله هو مثال للحقيقة. يقول:" الله يحرص العلوم الدَّقيقة منذ العصر الكلاسيكي، البعض يقول أنَّه يحملها، والبعض الآخر يقول أنَّه يفضِّلها. الشَّيطان يسيطر على العلوم الإنسانية، فهو مُخادع وغشَّاش ينشر خدعا شديدة حادة، لكي يُسقط قوة وصلاح الله ولأجل الظفر بمكانته". (Ibidem)

لكن الوضع في الفترة المعاصرة في نظره قد تغيَّر تماما، بمد الجسور بين المعرفة الدقيقة والمعرفة الإنسانية، يقول:" نعم عصر التنوير كان جدُّ فعَّال في التَّصنيف. الآن أرى أنَّ هنالك الكثير من الجانب العقلي في أعمال **مونتاني** (Montaigne) و**فيرلين**(Verlaine)، كما هنالك جانب لاعقلي مبعثر في الفيزياء أو الكيمياء الحيوية. العقل يتوزَّع إحصائيا في كل مكان: ولا واحد يدَّعي أنه حصريا في مكان واحد". (Serres Michel with Bruno Latour, 1990. Op.cit. p. 50).

بحيث أن العقل وجوده ليس حكرا على المعرفة المسمَّاة بالعلمية بل قد نجده في مجالات أخرى في الشِّعر والأدب والأساطير، ونفس الشَّأن مع اللاَّعقل، فقد كان يُنظر قديما إلى نص أو فيزياء لوكريس على أنَّها قطعة شعرية ليس إلا بعيدة عن العلم، انطلاقا من فكرة مضمونها أنه لا أحد يتكلم اليوم الفيزياء باستثناء المصطلحات الرياضية، وبما أنَّ نص **لوكريس** ليس رياضيا، إذا فهو بعيد عن العلم، لكن بعد ذلك أي بعد القرن 19م تمَّ دراسته وفق رياضيات أرخميدس، فتحوَّل إلى نظرية علمية من خلال ربطها بالدِّيناميكا الحرارية، وكان ذلك مع **ماكسويل** (Maxwell). فقد رأى أن النَّص في الواقع يتحدَّث عن ميكانيكا السَّوائل، حول الاضطراب والفوضى، حول الصُّدفة واللاَّحتمية، وهي التي أُصطلح على تسميتها بفكرة الكلينامن.

يُؤكد **ميشال سير** على صحة ما ذهب إليه، مبرزا في الآن نفسه أهمية العلوم الإنسانية من خلال تجربته الخاصة مع الفيلسوف **ميشال فوكو**، يقول:" لقد لعب ميشال فوكو علامة العلوم الاجتماعية وأنا ألعب علامة العلوم الطَّبيعية، حتى نتمكَّن من التَّعاون بدون صعوبات. لم يكن لدينا أي اضطراب عمل معا حول المنهجية". (Ibid, p38)

وإن كان يُقر برفضه في البداية لفكرة الرَّبط بين العلوم الدقيقة والأدب والعلوم الإنسانية، بحيث أنَّه كان يرفض الخوض في هذه المسائل، إلا أنَّه عدل عن هذا الموقف فيما بعد، يقول:" لقد وافقت على هذه المحادثة التي قد رفضتها سابقا، لأنَّه بالضبط هذا الرَّأي لم يكن واضحا بعد. نعم ارتحلت في كل مكان (الرياضيات القديمة والمعاصرة) والرياضيات في حد ذاتها عالم، الفيزياء القديمة والحديثة، البيولوجيا المعاصرة. عبر ما يسمى العلوم الإنسانية، وذلك عندما كتبت الشواش (Parasite)، روما (Rome) والتماثيل (Statues)".(Serres Michel with Bruno Latour, 1990.op.cit, p65).

ويضيف قائلا:" يمكنني العودة لتجربتي؟ لقد حصلت على شهادة في الدِّراسات الكلاسيكية، في اللاَّتينية واليونانية، كما تمَّ تدريبي في مجال العلوم، حصلت على شهادتين في الرياضيات. من خلال كامل حياتي لم أترك أبدا هذان الطريقان. ما زالت أقرأ **بلوتارخ** (Plutarsh) والفيزيائيين العظماء في الآن نفسه، كرفض للتَّفرقة بين العلم والأدب" (Ibid, p50).

"إنَّ عمل الفلسفة لا يستطيع فصل فكرة معيَّنة عن مجملها. فيلسوف، نعم يجب عليه أن يعرف كل شيء، يمتلك كل الفهم وكل المعايشة". .(Ibid, p45)

وذلك لأنَّ هنالك حملات شرسة وتحدِّيات ضد الكليَّة، كونها ميتافيزيقية وعديمة الجدوى والفائدة. يقول:" اعتقدنا بموت الكليَّة (الإجمال)، هكذا نستطيع الموت بتفتُّت. كل شيء حدث وكأنَّ العنف شارك إلى حد كبير في خرابها". (Serres, Michel. 1993. Les origines de la géométrie. P9).

إنَّ **سير** فيلسوف الوحدة والكلية في المعارف والانيسكلوبيديا، فالفصل في نظره لا علاقة له لا بنظام الأشياء ولا بمنطق الأفكار، لأنَّه ما هو في الحقيقة إلاَّ مكيدة مدبَّرة من قبل الايديولوجيين، من خلال تقسيمهم لرجال المعرفة إلى قسمين: علميين غير مثقفين وفي الجانب الآخر أدبيين جهلاء، والأدهى والأمر أنَّ كل واحد من هؤلاء يدَّعي الحقيقة متباهيا بتخصُّصه مقلِّلا من شأن تخصص الآخر. "في حين المعارف تشكِّل كلا، كمحيطات الكرة

الأرضية، وإذا ما بدا لنا البعض منها منفصلا عن الآخر، فإنَّنا لم نرى المضيق الذي يصلهم". (Frémont, Christiane. philosophie pour le temps présent. P.30).

فكتابه 'ممر شمال غرب' ما هو في الحقيقة إلاَّ كناية أو إشارة عن الاتِّصال الموجود بين العلوم: بين العلم والأدب، بين الفن والعلم، بين العلوم الإنسانية والدقيقة. "فهو يعكس حركة المرور السيِّئة بين المعرفة الراسخة والحدوس البريَّة، بين العلوم الدَّقيقة حيث لا أحد ولا حتى الله يستطيع الخداع، والعلوم الإنسانية أين في قراءتكم الكل يخدع ويُغيِّر قواعد اللَّعب". (Réponse de M. Bertrand poirot-Delpech au discours de M. Michel Serres).

لكن النُّقاد الكلاسكيون يبيِّنون بدون ضرر، بأنَّ الموضوع العلمي الصَّارم **لزولا** (وراثي، فيزيولوجي) قد خُرِّب باستمرار بواسطة نماذج سردية وأسطورية. ( Porée, Marc. discours de la méthode. ' la méthode serres').

لأنَّ هذه الأخيرة تعمل عكس العلوم الطَّبيعية، فهي بعيدة عن الطَّبيعة العلمية والمعرفية. بينما يُصرُّ **ميشال سير** على أخذ الرِّهان التَّالي: وهو الاتصال الوثيق بين الأساطير والعلم، يقول:" الخطاب الأسطوري هو نتاج نسيج: النَّسيج قد تمَّ: يمكن أن نتحدَّث عن العلم وحاجاته في الأساطير". (Ibidem).

كما أنَّه في كتابه'les feux et les signaux de brume Zola' يُبيِّن أنَّ عمل زولا يشير لفيزياء وبيولوجيا قرنه. لكن هذا لا يعني هنا أنَّها معجزة الفن، بل إنَّ زولا كان واقفا مواكبا لأبحاث زمانه (Réponse de M. Bertrand poirot-Delpech au discours de M. Michel Serres, Op.cit).

## 5. الأسطورة (La Mythologie) كمنهل للمعرفة:

يُعتبر **ميشال سير** من الاتِّجاه الرَّافض لفكرة التَّمييز بين المعرفة العلمية وغير العلمية، والتي سيطرت على الفكر البشري، خاصة بعد النَّجاحات الباهرة التي حقَّقتها المعرفة العلمية وبالأخص مع نظرية نيوتن في الفيزياء. ألقت بظلالها على حياة الإنسان بالإيجاب، تجلَّت في الثَّورة الصناعية والتَّطور التِّكنولوجي.

ويقصد بالمعرفة غير العلمية تلك التي على شاكلة المعتقدات الدينية والميتافيزيقية من تنجيم وسحر وأسطورة، بوصفها في نظر الوضعية المنطقية والعقلانية النَّقدية ساذجة لم

تقدم أيَّ خدمة للإنسانية، بل بالعكس من ذلك تماما انعكست عليه بالسِّلب، وهي سر تخلُّفه لما تحويه من خرافات لا يمكن لعقل الإنسان أن يستوعبها. في حين نجد **ميشال سير** يرفض وكما أسلفنا هذا الفصل جملة وتفصيلا، من خلال تأكيده على ضرورة إعادة النَّظر والتوجُّه إلى الأساطير، كونها مصدر جد ثري بالمعرفة، وقد استعان بها لتوجيه انتقادات للتأريخ الكلاسيكي للعلوم، وبذلك كتابته كتابة حقيقية، هذا ما نجده في كتبه التالية: La naissance de la physique dans le texte de Lucrèce, Thalès au pied de pyramides, la vestale enfouie...etc. فالشَّيء المميِّز للأسطورة أنَّها تبرز الجانب اللاَّعقلاني ودوره في تأسيس المعرفة، على عكس ما ساد عليه الاعتقاد قديما كونها رهينة العقل، كما أنَّه بفضل الأسطورة استطاع **ميشال سير** أن يُحوِّل الابيستمولوجيا ويطوِّرها إلى أنتروبولوجيا للعلوم.

ومن الأساطير البارزة نجد الأساطير الإغريقية، فقد أثَّرت تأثيرا كبيرا على ثقافة وفنون وآداب الحضارة الغربية، وهي جزء من التُّراث الغربي، بحيث ما زال الشُّعراء والفنانين والفلاسفة يستلهمون منها، ومنهم الفيلسوف **سير**. وممن يعود لهم الفضل في ظهور الأساطير الإغريقية **الشاعر هوميروس**، صاحب الملحمتين الشهيرتين **الإلياذة والأوديسة**.

كذلك نجد من الفلاسفة أيضا الذين ساروا في نفس الاتجاه، بجمعهم بين المعرفة العلمية واللاعلمية الفيلسوف **بول فيرباند**، وذلك من خلال تبنِّيه لفلسفة فوضوية أو لابيستمولوجيا فوضوية، ترفض فكرة المنهج الواحد انطلاقا من مبدأ ' كل شيء حسن Tout est bon'، فهذا الأخير يحوي في طيَّاته الكثير من الإشارات، من بينها: حرية اختيار المناهج ورفض إقصاء أو التركّيز على مجال معرفي واحد. يقول:" ما أسعى إليه ليس إحلال مجموعة واحدة من القواعد العامة، بل مجموعة أخرى كثيرة، وإنما مرامي هو بالأحرى إقناع القارئ أنَّ جميع المنهجيات حتى أكثرها وضوحا لها حدودها". (فيرابند، بول . 2001. العلم في مجتمع حر، ص45).

فهو يُقر بمحدودية كل المناهج في الوصول بنا إلى الحقيقة، وذلك كونها نسبية حتى تلك المناهج التي نثق في نتائجها ثقة مطلقة، مثلما هو الحال مع المنهج الاستقرائي والمعرفة

الاستقرائية، ففي نظره نسبية بحيث هنالك جهات أخرى يمكن أن نحصل من خلالها على المعارف، فلابد من توجيه بوصلتنا نحوها. وفي الجهة المقابلة فالمعرفة ليست حكرا على فئة دون أخرى، ليست حكرا على العلماء فقط بل يمكن أن نجدها عند آخرين، وهذا ما نستنتجه من خلال تصنيف الحقائق إلى أنواع: حقيقة علمية، حقيقة فلسفية وحقيقة ذوقية. فالحقيقة العلمية أصبحت في الفترة الحديثة معرفة تقريبية كما يقول **باشلار**، خاصة مع ظهور النظرية النسبية لأينشتين. أمَّا الحقيقة الفلسفية، فما يميّزها أنَّها مطلقة إذ أنَّ الفلاسفة يسعون دوما نحو الوصول إلى حقيقة لا تتبدَّل لا بالزمان ولا بالمكان، وهذا ما نجده عند **أفلاطون** بتمييزه بين عالمين: عالم المثل وعالم الحس، فالحقيقة عنده موجودة في عالم المثل باعتباره عالم الحقيقة، أعلاها في السُّلم الخير ثم يليها الجمال والأشكال الهندسية. في حين الصنف الثالث من الحقيقة هي الذوقية أو الإشراق، وهو الشعور الذي يستولي على المتصوِّف عند بلوغه الحقيقة الرَّبانية المطلقة، فهو يستقي علمه من الله أي من مصدر وراء العقل، وذلك عن طريق الحدس. وهذا ما نجده عند المتصوِّفة المسلمين، كفكرة الاتِّحاد بالله عند **أبي يزيد البسطامي**، وكذا حلول الله في مخلوقاته عند **الحلاَّج**.

نستنتج مما سبق أن الحقيقة حقائق، يقول في ذلك فيرباند:" إنّك على خطأ كبير ! هل تستطيع أن تتخيل أحد الأنبياء أو الرواد من النَّصارى يتأثر برجلين يسيران على سطح القمر الأجرد في الوقت الذي يستطيع فيه أن يتحدث مع الخالق ذاته؟... إنَّ مثل هؤلاء الناس كانوا ليسخروا من مثل هذا العمل الغريب الذي يضم عددا هائلا من الآلات، وآلافا مؤلفة من المساعدين...". (فيرابند، بول. ثلاث محاورات في المعرفة، ص 148).

ومن بين الأساطير التي ينسجها **ميشال سير** "حول الرَّابطة بين العقل العلمي والموت، فانَّه يقدِّمها كحدث تاريخي في thanatocratie. (والتي يقصد بها سلطة الموت)
أصبحت في كتاب روما وتماثيل (statues) أسطورة عظيمة، في معنى رواية حاملة معنى للإنسان". (Bensaude-Vincent, Bernadette. P8)

إذ يرى في هذه الأسطورة أنَّ العلم نظام ذا مركزين: حكمة، بحيث أنَّه منبع النور والحقيقة وهذا ما يظهر للأغلبية العظمى من النَّاس والفلاسفة، أمَّا المركز الثاني فهو الموت، لكنَّه خفي ودفين لا تدركه إلاَّ قِلَّة قليلة، وللتَّأكيد على دور الأسطورة يقول:" أيضا تترسَّم من خلال الأساطير والرِّوايات نظرية جديدة في المعرفة. وكل أنوار المعرفة تدفع الثَّمن على حساب الدَّفن". (Ibidem) .

أي أنَّ إغفال الطَّرف على الجانب السلبي للعلم والذي وصفه بأنَّه جانب دفين ومخفي، سيؤدِّي حتما إلى نتائج وخيمة على البشرية جمعاء، هذا ما صاغه في مصطلح تزامن وضعه مع القنبلتين النَّوويتين هيروشيما ونغازاكي، ألا وهو thanatocratie. يقول:" العلم قام بشيء من الاغتصاب البريء والبسيط باسم السُّلطة، هذا ما أسميته thanatocratie (سلطة الموت)، بواسطة اغتصاب العلم. ولأجل هذا صُغت الشَّخصية الجديدة "thanatocrate (Serres, Michel. 2014. Pantopie. op.cit. p165)

فهي شخصية خيالية يُقصد بها '**صاحب السلطة باسم الموت**'، نسجها لكي يصور الواقع الإنساني، الذي أصبح مهددا في أي لحظة من اللحظات بالفناء وذلك بسبب الاستعمال السَّيء للعلم، كون أن السُّلطة في يد مجانين خطيرين يمكن لهم القضاء على الحياة الأرضية كلَّها، وهذا كله نتيجة عقلية ومنطق قاصٍ، إذ أنَّ نهاية العالم والفضاء الإنساني في نظره هو في آفاق السِّياسة.

كما أنَّه يُعرِّف هذه الشخصية فيقول عنها:" هي شخصية هيجلية بقياس عام، أنا جد بعيد عن التفكير الهيجلي. خاصة فكرته حول الجدل، تظهر لي ضعيفة وخاطئة. لكنها مهمَّة في جانب ما، تُظهر بالأخص الكفاح بين العبد والسَّيد صاحب السُّلطة الذي هو أقل خوفا من الموت. بالنسبة لهيجل الموت هو في قلب التَّاريخ وأظن أنَّ له الحق في ذلك. لأنَّ المتسلطين هم أسياد التَّاريخ".(Serres, Michel. 2014. Pantopie. op.cit. p165)

كما يرى أن اغتصاب المعرفة وتاريخها يعود كذلك إلى سلطة الموت. ( Serres, Michel. la traduction. P77. 1974).

**1.5 دواعي إبداعه لمفهوم thanatocratie:**

إنّ دواعي إبداعه لهذا المفهوم كان لظروف معيَّنة، بغية الرَّبط ما بين الأخلاق والعلم والمجتمع، أي للحد من خطر العلم ولأجل الاستغلال الحسن له، بالإضافة إلى التَّنويه إلى أخطاره، مثلما هو الحال مع أسلحة الدَّمار الشَّامل والقنابل النَّووية. لكن هذه المسألة لم يتطرَّق لها -في نظره- أيُّ ابيستمولوجي قبله، يقول:" أبدعت المفهوم في فترة أين أسئلة القيم في المجال العلمي لم توضع بعد. أتذكر أنَّ أساتذتي في الابيستمولوجيا، غاستون باشلار أو جورج كونغيلهم، السؤال لم يطرح إطلاقا".

(Serres, Michel. 2014. Pantopie. Op.Cit. p. 166).

بحيث يرى أنَّ غاستون باشلار في نشره لـ:' النشاط العقلي للفيزياء المعاصرة' سنة 1951م، لم يُشر فيه ولو بكلمة واحدة للتَّقريب بين المجتمع والعلم، كذلك نجد أن ميكانيكا الكم قادت نحو القنبلة الذرية لكن ولا إشارة حول ذلك في ما حدث في هيروشيما. يقول:" ينبغي الإقرار بأنَّ في العالم الفلسفي هنالك أناس قليلون لهم ثقافة علمية حقيقية. والنتيجة هنالك القليل من الابيستمولوجيين في فرنسا، ومن بين هؤلاء لا أحد فهم ماذا حدث في هيروشيما. فالرَّابطة بين العلم وقيمه الأخلاقية لم تكن واضحة".(ibid. pp 166-167)

كما أنَّ هذه المسألة -الرَّبط بين الأخلاق والعلم- ليست حكرا فقط على الفيزياء بل تمتد إلى غاية الكيمياء والبيولوجيا.

ومن الأمثلة أيضا التي نضربها، لإبراز مساهمة الأسطورة في التَّقدم العلمي، فكرة الشاعر والفيلسوف **لوكريتوس** حول الكلينامن، فقد قُرء وكأنه نص أدبي أو مذهبًا ميتافيزيقيًا، لكن فيما بعد في القرن 19م تحوَّلت إلى نظرية علمية من خلال ربطها بالديناميكا الحرارية، وكان ذلك مع **ماكسويل** (Maxwell)، وقبله أفكار كل من ديمقريطس وأبيقور. فكل هذه الأفكار الميتافيزيقية ساهمت في بلورة الحقائق العلمية.

## 4. خاتمة:

إنّ فلسفة الاتصال عند ميشال سير تشير إلى الضَّجيج كضرورة حتمية في عالم الاتصال لا يمكن التَّخلص منه بأيّ حال من الأحوال، مستثنيا من ذلك اللُّغة الرياضية كونها الوحيدة الخالية من أيّ اضطراب. بالإضافة إلى ذلك سعيها (فلسفة الاتصال) نحو التَّحرر من كل الحتميات التي تمثل في نظره عائقا أمام الإبداع، من بينها: العقلانية، اليقين والايدولوجيا. كونها تهدف نحو توطيد العلاقة بين العلوم الدَّقيقة والإنسانية، وبذلك إلغاء لفكرة التَّمايز: فلاسفة وأدباء من جهة وعلماء من جهة أخرى، وهذا بطبيعة الحال من خلال فعل النَّقل والاستيراد بين مختلف الجهويات العلمية.

## 5. المراجع:

1-فيرابند بول، العلم في مجتمع حر، ترجمة وتقديم وتعليق السيد نفادي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية. الكويت، 2001.

2-فيرابند بول، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف، الإسكندرية.

3- كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط5، دار المعارف، القاهرة، 1986.

4- ليشته جون، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مراجعة محمد بدوي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، 2008.

5-نجيب محمود زكي، قصة الفلسفة الحديثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936.

1-بيسون جوليان، " ميشيل سير... كلنا متفرّدون، لا تُكلّف نفسك عناء المديح" (حوار جوليان بيسون مع ميشال سير)، تر: لطفي السَّيد، مجلة الدوحة، العدد 96، أكتوبر 2015.

2-تيبس، يوسف. (2002). "تاريخ وفلسفة العلم عند ميشيل سير". مجلة عالم الفكر، المجلد30، العدد 4، الكويت، 20002.

**1**- تيبس يوسف، فلسفة العلم في القرن الحادي والعشرين، http//: www.anfasse.org. (01.05.2017 -17:47)

**2**- ساسين فارس، "لقاء مع ميشال سير".
http//: fares-sassine.blogspot.com/2014/02/2000.html.(15.09.2017).

1- Serres Michel, la traduction, les éditions de Minuit (Critique) Paris, 1974.
2 – Serres, Michel, la distribution, les éditions de Minuit, Paris, 1977.
3- Serres Michel, The parasite, translated by Lawrence R. Schehr. The Johns Hopkins University Press, 1982.
4- Michel Serres, les cinq sens, édition Grasset et Fasquelle, France, 1985.
5- Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture, and time, translated by Roxanne Lapidus, édition François Bourin, France, 1990.
6- Serres, Michel, les origines de la géométrie, Flammarion. Paris, 1993.
7- Serres Michel, la naissance de la physique, les éditions de minuit, Paris, 1998.
8- Serres, Michel, Pantopie: de hermès à petite poucette, édition le pommier, Paris, 2014.
9- Serres Michel, Ecrivains, savants et philosophes font le tour du monde, le pommier, Imprimerie LABALLERY à Clamecy. France, 2015.
1- Bensaude-Vincent, Bernadette. 'Michel Serres, historien des sciences. P. 8. https: //halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-0050777. (10:30 - 28.06.2018).
2- Frémont Christiane, philosophie pour le temps présent, P.30. http:// excerpts.numilog.com. (19:45 -14.07.2017).
3- Réponse de M. Bertrand poirot-Delpech au discours de M. Michel Serres. www.academie-francaise.fr. (10:12 - 20.07.2017).
4- Porée, Marc. discours de la méthode. La 'méthode serres'. http:// sillagescritiques.reveues.org/3155. (11:07- 14.06.2017).

ميشال سير فيلسوف فرنسي مختص في فلسفة العلوم وتاريخها من مواليد 1930م، لديه الكثير من المؤلفات أهمها: سلسلة هرمس في خمسة أجزاء، الحواس الخمس، أصول الهندسة و الأصبع الصغيرة.